أثر البيان القرآني في خطاب البشير الإبراهيمي؛ قضايا الأمة الإسلامية أنموذجا

The Impact of the Quranic Statement in Al-Ibrahimi's Discourse The Case of; Matters of the Islamic Nation

د.عبد الرحمن بلحنيش

المركز الجامعي عبد الله مرسلي– تيبازة (الجزائر)

abelhenniche@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/08/30 **تاريخ القبول: 2021/09/28**

ملخص:

يتناول هذا البحث عَلما فذّاً من أعلام الجزائر، ألا وهو محمد البشير الإبراهيمي وكيف كان يجري القرآن الكريم على لسانه بيانا وتعبيرا بما امتلك من مقدرة لغويّة تبوّأ بها شتّى المحافل، وساد بها في الخطب والمقالات، في الدّروس والمواعظ؛ جاعلا من أحداثه وقصصه، ووعده ووعيده، ترغيبه وترهيبه، ومجالات شتّى مادّة أوّلية يستقي منها أحاديثه وكتاباته، يتزيّن بها أسلوبه، هادفا بذلك إلى إحياء اللّغة العربيّة، وذلك بشدّ النّاس إلى هذا المعين الصّافي، شارحا لهم مواقفه، ورابطا لهم به وكأنّه يفسّره بطريقة عمليّة إجرائيّة؛ من ذلك أنّه يضمّن أسلوبه آيات من الذّكر الحكيم، أو يقتبس من القرآن طريقته في التّعبير بالإضافة إلى فنون أخرى من القول، موظفا زخرف القول المرصّع بالسّجع والجناس، تنساب على لسانه عفو الخاطر بلا تكلّف، كما كان يوظّف التّشبيه والاستعارة والمجاز والكناية في مواقف متعدّدة، هادفا من ورائها إلى النّصح والإرشاد، رغبة وأملا منه في أوبة بلده إلى حظيرة الأمّة والإسلاميّة، وعودة اللّسان العربي والبيان القرآني إلى مكانته المرموقة، بعد غياب.

الكلمات المفتاحيّة: الإبراهيمي، البيان القرآني، الأسلوب، التّضمين، الاقتباس، الاستعارة، المجاز

Abstract:

This research tackles a great figure from the Algerian scholars, Mohammad Al-Basheer Al-Ibrahimi, and how the Holy Quran flows in his expressions and statements due to his linguistic competence which promoted him in the different forums, and prevailed his sermons, articles, speeches, as well as preaching. Making the Quranic events and stories, promises and warnings, coaxing and alarming and other various domains, a raw material from which he extracts his talks and writings, and embellishes his style. His prime objective was to revive the Arabic language through guiding people towards this pure resource (Quran), explaining its positions to them, and bounding them to it, as if he is interpreting it in a practical and procedural way. For instance, Al-Ibrahimi tends to include verses of the wise remembrance (Quran) in his style, or quotes the Quran in its way of expression, in addition to other styles of speech such as rhyming and alliteration which spontaneously flow on his tongue without affectation. Furthermore, he tends to employ simile and metaphors, figurative speech as well as euphemism in various occasions, aiming at advising and guiding his audience, with the hope that his country returns, once more, to the fold of the nation and Islam and so that Arabic and the Quranic text regain their supremacy.

***Keywords*:** Al-Ibrahimi, the Quranic statement, Style, Inclusion, Quoting, Borrowing, Figurative Speech.

مقدّمة:

لقد جهد كثير من دعاة النّهضة والإصلاح والفكر والأدب، في عالمينا العربي والإسلامي في العمل على عودة المسلمين إلى ركب الحضارة، من خلال ربطهم بالمعين الصّافي الأوّل ألا وهو القرآن وعلومه، وذلك بإعادة تفسيره وتذليل صعابه؛ وتيسير مصادره، وإحياء للّسان العربي ببيانهم لمكانته، ولصلته بهذا الكتاب؛ من هؤلاء الأفذاذ محمود شكري الألوسي وجمال الدّين القاسمي وعبد الحميد بن باديس والطاهر بن عاشور وغيرهم كثير؛ قدّموا تفاسير لغويّة وفكريّة وعلميّة، كان لها عظيم الأثر على الشّعوب العربيّة والإسلاميّة، فعاد للّغة العربيّة بريقها، ورونقها، بعد أن كادت تذوي وتزول. ومن رجال الإصلاح في الجزائر محمد البشير الإبراهيميّ والّذي يوصف بأنّه لغويّ ممتاز لم يأل جهدا في سبيل خدمة لغة القرآن، وخير مثال على هذا تلك المؤلّفات اللّغويّة الّتي ضاعت

والخطب والمقالات والحوارات الّتي جعل من القرآن فيها يجري على لسانه وخطابه بطرق الاقتباس والتضمين والتّشبيه والاستعارة والسجع والتّجنيس؛ فمتابع هذه الكتابات من خطب ومقالات يرتبط دوما بالقرآن بشعور منه أو بغير شعور، وهذا بانسياب القرآن لفظا ومعنى في أسلوبه ومقاله؛ فكان هذا من أعظم خدماته عليه الرّحمة والرّضوان.

فمن هذا الرّجل؟: هو محمّد البشير الإبراهيمي الإدريسي شرفا ونسبا، يرجع إلى قرية أولاد ابراهم بالشّرق الجزائري ولاية برج بوعريريج، سئل عن مولده فقال:"ولدت أنا والشّيخ ابن باديس في عام 1989م، فاتّفقنا في الميلاد زمانا واختلفنا مكانا"[1] نشأ في أسرة علم وتقوى، قال عن نفسه: قد حفظت القرآن الكريم ولم أتجاوز الثّامنة من عمري، ونشأت في بيئة وأسرة تحتفظ ببقايا علم ودين، متلقّيا مبادئ هذا على أيدي شيوخ ذلك العهد[2] وأفضل من تلقّى على يده فنونا من الأدب واللّغة عمّه محمد المكّي الإبراهيمي الّذي تولّى رعايته، وتعهّده، وحفظ على يديه كثيرا من متون وفنون العلم من فقه وصرف ونحو وشعر قائلا: ولم يكن يفارقني إلاّ في النّوم وهو من يأمرني به..[3]، ثمّ كانت هجرته إلى المدينة المنوّرة حيث بقيّة الأهل والإخوان، –كما يروي– وأعانني جوّها –المدينة المنوّرة– على البحث والدّراسة بطول المقام فيها، والأخذ عن شيوخها، والمساهمة في بذل العلم لطلاّبها[4]، وبعد أن ساءت الأحداث بالحجاز نتيجة ثورة شريف مكّة، قام العثمانيّون بترحيل أهل المدينة –وكان منهم– إلى دمشق، فكانت له بها صولات وجولات، ملتقيا بعلماء هذا البلد، وشيوخه وأعيانه، مغترفا من مكتباتها كمكتبة جمال الدّين القاسمي وعبد الرزّاق البيطار، كما ساهم في التّدريس بأكبر ثناويّاتها فكان له بها طلاّب كثر، بقيت له بهم صلات ومراسلات على مرّ الأيّام والأعوام[5]. ثمّ كان القدر أن يعود لهذا الوطن فيساهم في نهضته ويقظته من غفوته أو نومته، فأسّس رفقة صفيّه وصديقه ابن باديس وثلّة من علماء بلده جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م، ساهرين عليها وفق برنامج ثري من تدريس ووعظ، وتعليم ونشر للوعي، عبر ربوع الوطن، وبناء للمدارس والمساجد منشئين للجرائد والمجلاّت، فكان أن تعرّض للسّجن، والنّفي والمضايقات، ثم الهجرة مرّة ثانيّة إلى خارج الوطن ممثّلا للثّورة الجزائريّة مدافعا عن قضاياها حتّى الاستقلال. ليعود مرّة أخرى مشاركا في مسيرة البناء والتّعمير إلى أن وافته المنيّة عام 1965م. أمّا ما تركه لنا من

آثار، فكان قليلا، وقد سئل عن ذلك فقال: ألهانا تكوين الرّجال عن تأليف الكتب، يقول الأستاذ أحمد توفيق المدني عنه: "كان الإبراهيميّ يقضي سحابة يومه في البناء والتّعمير ويقضي سواد ليله في التّدبير والتّفكير، ولم نكن نعرف له خلال هذه الملحمة مقرّا معلوما"[6]. ومن آثاره –وقد ضاع أكثرها– رواية الثّلاثة، رسالة الضّبّ، مرشد المعلّمين ملحمة شعريّة طويلة، بقايا فصيح العربيّة في اللّهجة العاميّة بالجزائر، أسرار الضّمائر في العربيّة، سرّ التّسميّة بالمصدر، رواية كاهنة الأوراس، رسالة في مخارج الحروف، ومخطوطات كثيرة، أمّا ما دوّن وجمع من المجلاّت والجرائد، فكان: عيون البصائر في ثلاثة أجزاء، وآثار الإبراهيمي في ثلاثة أجزاء، أو أربعة.

- **تمهيد للموضوع:**

لقد شهد العصر الحديث يقظة فكريّة ونهضة علميّة في ربوع العالم العربي والإسلامي كان على رأسها علماء ومفكّرون وأدباء وشعراء أفذاذ، عملوا ليلا ونهارا باذلين أقصى الجهود للعودة بالأمّة الإسلاميّة إلى مصافّ الأمم بعد انتكاسة وغياب طويل، كان نتيجته أن دخلت جلّ الأقطار العربيّة والإسلاميّة في حكم الوصاية أو الاستدمار.

وقد هيّأ اللّه لهذه الأمّة أعلاما يجدّدون لها أمر دينها، فعملوا على عودة شعوبهم إلى هذا الدّين تطبيقا وعملا، وخير ما يحقّق هذه العودة، هو ربط النّخب والعامّة بالقرآن الكريم لأنّه، المعين الأوّل الّذي غيّر حياة العرب، وجعل منهم خير أمّة أخرجت للنّاس أعجزهم بلفظه ومعناه، وسحرهم بتركيبه وبيانه. لقد عمل العلماء المجدّدون لهذا الدّين بهذا المبدأ، وهو العودة بالنّاس إلى المعين الّذي لا ينضب، وهذا بربطهم بأعظم كتاب على الأرض والسّماء، بحفظه في الصّدور ترتيلا وتمثيلا. ومن ثمّ راحوا يعيدون تفسيره في حلل جديدة، وطرائق متنوّعة، في حسن بيان، بغرسه في العقول والقلوب، فتذكى الهمم وتشحذ العزائم، فيتغيّر الواقع فتنتفض الإرادات، ويرجع النّاس إلى الجادّة وذلك بالتّمسكّ بدينهم.

ومن هؤلاء الأفذاذ الّذين علموا ما في البيان القرآني من طاقة خلاّقة دافعة محرّكة محمّد البشير الإبراهيمي الّذي أدرك أنّ ما يزخر به القرآن من فصاحة في ألفاظه، وبلاغة في معانيه وتنوّع في أساليبه ورقيّ في أفكاره، كفيل بتحفيز الهمم، وإيقاظ للشّعور الدّيني

والوطني، لذا جعل من المقالة والخطبة والخاطرة سبيلا لذلك، فكان أن انتشرت هذه الأعمال في الآفاق في الجزائر والوطن العربي، بعد شهرة واسعة بما أثمرته من عزّ لأصحابها وتأثير في روّاد مجالسها؛ فالإبراهيمي، وإن لم يترك لنا تفسيرا يذكر به، أو دراسات لغويّة تخلّد مآثره، إلاّ أنّه خلّف لنا آثارا في الصّحف والمجلاّت، تعجّ بالكثير من آي القرآن الكريم تصريحا وتلميحا، أفكارا ومعاني، في قوالب الوعظ والإرشاد والتّحذير، لشعوب الأمّة الإسلاميّة، وما ينتابها من مخاطر الغزاة والفرقة والشّتات، فهو لم يفرّق يوما بين الجزائر وبين باقي الشّعوب، فمن قضيّة محلّيّة إلى أخرى إقليميّة إلى دوليّة، من الجزائر إلى فلسطين إلى مصر إلى اليمن إلى.... قلت وهو وإن لم يترك لنا تفسيرا –وإن كان قادرا على ذلك– فقد ترك مئات المقالات والخطب تزخر بأسلوبه اللّغويّ القرآني اقتباسا وتضمينا يربطها بفنون من القول كالاستعارة والتّشبيه والإيجاز والمجاز، والسّجع والتّجنيس، فمتناول آثار الإبراهيمي كعيون البصائر، يجد نفسه مع القرآن قراءة وفهما وتفسيرا؛ فبراعة توظيف الإبراهيمي لآيات القرآن الكريم، تجعل المتابعين يفهمون ما في القرآن من معان ومواعظ، وعبر ودروس ومنه يكون الوعي والعودة لهذا الدّين وبهذا يتحقّق المطلوب، وقد شهد بهذا القاصي والدّاني لمقدرة الإبراهيمي، في جعل القرآن الكريم يتجلّى في بيانه ترسّلا وخطابا، بالتّشبيه وحسن توظيف الاستعارة، بالتّزويق اللّفظي، من سجع وجناس وتوريّة، وتلاعب لفظيّ وهذا كلّه قد ربط النّاس بالقرآن فيقبلون عليه قراءة وفهما واستيعابا. وهذا من أعظم خدماته له.

- **مزايا أسلوب الإبراهيمي:**

لقد شهد للإبراهيمي بماله من مقدرة لغوية، فكثير من الأدباء واللّغويّين، قد وصفوا معجمه بالثّراء اللّغوي، كما شهدوا له بالتّنوّع الثّقافي وهذا من خلال كثرة اطّلاعه على عيون الأدب وفرائد الكتب العربيّة، يقول في تربيّة الملكة الأدبيّة: "إنّ ما يربي الملكات الأدبيّة الصّحيحة ويقوّمها الإدمان، إدمان القراءة المتأنّية المتدبّرة لكتب الأدب الحرّة الأصيلة، والاستكثار من حفظ الشّعر واللّغات والأمثال ومعرفة مواردها ومضاربها، والتنبّه لمواقع استعمالها من كلام البلغاء من شعراء وخطباء وكتّاب، ثمّ ترويض القرائح والألسنة والأقلام على المحاذاة؛ ذلك أدنى أن تستحكم الملكة وتنقاد القريحة فتجري الأقلام على

سداد، ويمدّها الفكر من تلك المعاني بأمداد وتوضع الكلمات في الجمل في موضع الآلئ من العقد، وما جاء حسن العقد منظوما، إلاّ من حسنه منثورا. ثمّ تكون الحِكَمُ والأمثالُ والنّكتُ كفواصل الجمان في العقود الثّمان"[7] ، لذلك فقد وصفه من وصفه بأنّه جاحظ زمانه، لنصاعة أسلوبه، وشرف بيانه، فقد بزّ أقرانه فلم يجاريه أحد في أسلوبه العربي المبين. يقول عنه عبد المالك مرتاض: "يعد أسلوب البشير الإبراهيمي مدرسة قائمة بنفسها ويشكّل مذهبا فنّيّا في الجزائر للكتابة الأدبية، كما يعدّ استمراريّة للأساليب الفحلة القديمة وتطوير تعابيرها وطرائفها في تدبيج القول وزخرفة الكلام؛ لذا نجده يمتاز بجزالة الألفاظ ووضوح المعاني وحرصا على التّأنّق في الأسلوب واستخداما للمحسّنات البديعيّة"[8]، ويقول عنه جابر عصفور: "تشكّل اللّغة في أدب الإبراهيمي الخليّة الحيّة لمقاييس درجة العمق الّذي يرتفع إليها أدبه ويلتقي عنده مفهوم اللّغة مع مفهوم الأدب"[9]، أمّا محمد عبّاس فيقول: "إنّ اللّغة المستعملة عنده عميقة في ذاتها، عميقة الدّلالات والتّفسيرات، لا من حيث المتانة والقوّة فقط، ولكن من حيث المقصود والمفهوم الّذي عمله معها"[10]، ويقول شكري فيصل: "كان البيان العربي في أسلوب الإبراهيمي انعكاسا لموقف فكري أو حدث مادّي وانفعال نفسي، ذلك هو المقياس الصّادق للقيم الحقيقيّة"[11]، فقد شهدوا له بثراء لغته في خطبه ومقالاته، قد ورثها عن القرآن الكريم والحديث النّبوي الشّريف، ومختلف ألوان النّثر والشّعر العربيين، وحسب الدكتور الجنيدي خليفة فإنّ رغبة البشير ومن ورائه فريق التّحرير في التّأثير على المتلقّين بنقلهم إلى الجوّ التّراثي المشحون بقيمهم الدّينيّة وأصولهم اللّغويّة والثّقافيّة، تنميّة للشّعور في نفوس مواطنيه بالانتماء المتميّز عمّن يحكمونهم وتعميق الاعتزاز بهذا الإحساس في صدورهم"[12]، لأنّ حياة الأمّة –كما يقول الأمير خالد– بحياة لغتها[13]، وهو ما دعا إليه ابن باديس، حيث نقل عنه قوله: "ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغرّ والمستقبل السّعيد إلاّ هذا الحبل المتين للّغة العربيّة، لغة الدّين لغة الجنس، لغة القوميّة لغة الوطنيّة المغروسة"[14].

ومن رأى أنّه قد ندر في زمانه أن يكتب المغاربة كما يكتب، متفوّقا على طه حسين بلغة متينة، وألفاظ منتقاة، وجمل بإيقاع وموسيقى بسمات أسلوبيّة متميّزة.

- **مجالات التّجلّي القرآني في البيان اللّغوي لدى الإبراهيمي:**

– مجال التّضمين والاقتباس: ظاهرتا التّضمين والاقتباس ميزتان للتّواصل الأدبي والتّاريخي بين الأجيال، وبين الأدباء، إن لم نقل بين النّاس جميعا. كما أنّ لهاتين الظّاهرتين دلالة على مرجعيّة الكاتب أو الأديب، الّتي تسمه وتميّزه عن غيره، إذ هما هويّته، كما يعتبران ميزان مفاضلة النّقّاد بين أشكال النّصوص، وحتّى بين الأدباء. فالإبراهيمي قد تميّز بهذا اللّون من ألوان البديع، وقد نجح في توظيفه توظيفا فنّيّا، جاعلا من مقالاته شكلا مشبعا بالتّشويق والتّصوير الجّادّ والسّاخر في نفس الوقت، وإبراز ما له من أثر في بيان المعاني المراد إظهارها في الفكرة الرّئيسة للمقالة. **فما التّضمين والاقتباس؟**

التّضمين لغة: يعود إلى الجذر اللّغوي (ض م ن) ويقصد به: إيداع الشّيء شيئا آخر وحفظه بهيئة ملائمة في قالب معيّن، قال ابن منظور: "وضمّن الشّيئ الشّيئ أودعه إيّاه كما تودع الوعاء المتاع والميّت القبر.."[15].

أمّا **اصطلاحا:** هو أن يأخذ المتكلّم كلاما من كلام غيره، يدرجه في لفظه لتأكيد المعنى الّذي أتى به أو ترتيب النّظم"[16]. هذا عن التّضمين، أمّا **الاقتباس لغة:** فطلب القبس والقبس شعلة من نار تقتبس منها أو معظمها، أخذت منها طائفة لحاجتك، ويستعار لفظ الاقتباس لطلب العلم والأدب"[17]. أمّا **اصطلاحا:** فهو تضمين الشّعر أو النّثر شيئا من القرآن أو الحديث النّبوي الشّريف من غير دلالة على أنّه منهما، مع جواز بعض التّغيير غير المخلّ في الأثر المقتبس"[18]، وعرّفه الرّازي بقوله: "هو أن تدرج كلمة من القرآن أو آية منه في الكلام تزيينا لنظامه وتضخيما لشأنه، كقول الإمام أبي منصور عبد القاهر التّميمي البغدادي:

أبشر بقــول اللّه في آياتــه إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف

ولهذا الاقتباس فائدة جليلة القدر، حتّى أنّهم كانوا يعدّون الخطبة الّتي يخلو منها هذا الاقتباس ولا توشّح به، بالبتراء[19]. لهذا ألفينا الإبراهيميّ قد أتقن هذا الفنّ البديعي، فهو يغطّي مساحة واسعة من مقالاته وخطبه، وهذا يرجع لثقافته الدّينيّة القرآنيّة والّتي أثّرت إيجابا في أسلوبه بشكل كبير، يرى أحد الباحثين أنّ" قوّة أسلوب الإبراهيمي إنّما منبعها في حسن الرّبط بين المفردات ومعانيها وفي القدرة على توظيفها"[20]. ولعلّ غاية الرّجل بهذا

النمط من الكتابة العودة بالأمّة إلى ما صلحت به حياتها أوّل الأمر؛ ألم يقل الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم: "**تركت فيكم ما إن تمسّكتم به فلن تضلّوا بعدي أبدا كتاب اللّه وسنّتي**"[21] لذا كان يكثر من هذه الاستشهادات والاقتباسات والتضمينات، وكأمثلة عليها تراه ناقدا موظّفا للقسم، فيقول: "أقسم عليك بالصّور والطّور والقانون المسطور والقايد والمسطراطور الّذي شبع فانتفخ فأصبح امبراطور.."[22]، في هذا القول إشارة واضحة إلى ما ورد في القرآن الكريم، في سورة الطّور، حين ابتدأها المولى بالقسم ﴿وَالطُّورِ، وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾[الطور:1و2]، لقد وظّف الإبراهيميّ، لفظتين من القرآن هما الطّور، والمسطور ولكن القالب الّذي ساق فيه التّضمين والاقتباس، كان قالبا هزليّا، لتصوير حال الجزائريين ومعاناتهم في وسط قوانين جائرة يرعاها انتهازيون كالقايد بالتّحالف مع أذناب الاستدمار (المسطراطور)، يعيشون على امتصاص دماء شعبنا، هذه فكرة أراد الشّيخ تصويرها. ومع توظيف القسم كان الشّيخ يسوقه في سجع ينساب انسيابا غير متكلّف فيه، بصوت الواو مع جرس الصّاد والسّين والطّاء والواو، وهي حروف لها من القوّة والأثر في السّامع.

– **مجال التّضمين بالتسجيع والتّجنيس**: في أحيان كثيرة نجد الشّيخ يضمّن ويقتبس لكن في صورة يلفّها السّجع والتّجنيس، سخريّة وامتعاظا، دون تكلّف، يقول محمّد بن سمينة في هذا المقام عن طريقة الشّيخ في الكتابة: "أحيا بذلك شباب العربيّة وألبس أسلوبها حللا من القوّة والإحكام والبلاغة والبيان، وحرّرها من السّجع المرذول والصّنعة المتكلّفة"[23]. وفي مقال عنونه بسجع الكهّان يقول: "لا أقسم بذات الحفيف، والجناح الخفيف المشارفة في جوّها للكفيف، وبالسرّ المودع في التّجاويف، والتّلافيف، وبالمغيرات صبحا عليها التّحافيف"[24] أمّا ما وظّفه من اقتباس فهو ظاهر للعيان، قوله:﴿لاَ أُقْسِمُ﴾، فهذه العبارة تأتي على عدد من السّور، كـ ﴿لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، و﴿لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيامة﴾، كما وظّف قوله: (وبالمغيرات صبحا) مقتبس من سورة العاديات: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ هذا التّوظيف قلنا قدّمه في شيء من التّجنيس كبين لفظي: الخفيف والحفيف؛ أمّا عن السّجع فكانت تلك الكلمات تلتقي في حرف الفاء: الحفيف، الخفيف، الكفيف التّجاويف، التّلافيف.. فهذه التعابير تبيّن مقدرته على التلاعب بفنون القول المختلفة متراوحة بين الجدّ والهزل.

– **مجال التّضمين بالكناية**: الاقتباس الإشاري نوع من أنواعه، أي إشارة إلى شخص أو إشارة إلى مدينة، أو حادثة، فهذه الإشارة كأنّها كناية، عن موصوف أو صفة أو نسبة. من ذلك قوله: "أين الجنّتان عن يمين وشمال؟ وأين البلدة الطّيّبة؟ إنّها اليوم رمال.."[25]، وهو ما جاء في سورة سبأ ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ تساؤل الإبراهيمي يقود مباشرة إلى سورة سبأ وسبأ مدينة تاريخيّة باليمن، كان بها سدّ مأرب، وحوله جنّتان عن يمين وشمال، خيرات عظيمة فكفرت بأنعم اللّه فأذاقها اللّه لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، انهار السدّ، وتفرّق القوم أيدي سبأ أو تفرّقوا شذر مذر فعبارات الإبراهيمي إنّما ساقها ليصوّر حال **اليمن** وما آلت إليه من التّناحر والتقاتل والخراب وهو ما عناه بقوله: إنّها اليوم رمال، فمثلما كان يصوّر حالا، كان محذّرا من أحوال التفرّق، وأنّ النّعم تزول، إذا لم يعهدها أهلها بالحفظ والصّون.

وعن **فلسطين** يحذّر كما حذّر عن اليمن، وكما قلنا في بداية البحث أنّ الرّجل يعتبر الأمّة جسدا واحدا، وما يجري على بلده يجري على مختلف بلاد المسلمين، أو بالأحرى نقول: إنّه يعتبر كلّ بلاد المسمين بلده، وأنّ هذا التّقسيم إنّما قام به الاستدمار ليضعف المسلمين فلا تقوم لهم قائمة، يقول: "وأنّ فلسطين وديعة محمّد عندنا وأمانة عمر في ذمّتنا وعهد الإسلام في أعناقنا فلئن أخذها اليهود منّا ونحن عصبة إنّا إذا لخاسرون.. ويقول: وضاعت فلسطين منّا حين قسّمت بالتّصويت وهو أضعف صدى، وعلى الأوراق وهي أنزر جدّا وبالأغلبيّة السّائرة على غير هدى، تحدّيا للعرب الّذين كانوا في ذلك المجلس أضعف ناصرا وأقلّ عددا"[26]، في هذا القول وظّف الإبراهيمي عدّة إشارات منها، قوله: (ونحن عصبة، إنّا إذا لخاسرون) إشارة إلى قول إخوة يوسف لأبيهم يعقوب في سورة يوسف الآية 14:﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾، فانظر إلى ذكاء الشّيخ كيف يربط فلسطين، بأولاد يعقوب، فقد كانوا عصبة وباعوا أخاهم، وزعموا لأبيهم أنّهم عصبة فكيف يضيّعونه؟ ثمّ يسقط هذه الحال على حالنا نحن اليوم، فكيف تضيع فلسطين من بين أيدينا ويأخذها زمرة اليهود منّا، ونحن عصبة بل عصب كثيرة، إنّا إذا لخاسرون وأيّ خسارة لا ينفع معها النّدم، إلاّ بالعمل على عودتها إلى حظيرة الإسلام والمسلمين.

ثمّ يصوّر حال المسلمين من التفرّق، حين تكالبت عليهم الأمم، في هيئة الأمم إشارة إلى ما وقع من التّصويت في قضيّة التّقسيم، ولم يكن لهم ناصر أو معين، وهو ما عبّر عنه بقوله: (كانوا أضعف ناصرا وأقلّ عددا)، وهو مضمّن ومقتبس من قوله تعالى في سورة الجنّ الآية 24:﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾، تصوير رائع لحال العرب والمسلمين في المحافل الدّوليّة، فلا ناصر لهم ولا معين. ثمّ يبيّن علاقته هو بفلسطين، فيذكر أنّها عربيّة، وهو عربيّ، فإنّ عليه واجبات نحوها، كما أنّها إسلاميّة وهو مسلم، فله عليها واجب آخر، يقول: "..وله بإسلامه عهد لفلسطين من يوم اختارها الباري للعروج إلى السّماء ذات البروج"[27]، في هذا القول الأخير إشارة ضمنية إلى جملة من الأحداث التّاريخيّة والقضايا الدّينيّة يتعلّق بها المسلمون ولا ينسونها أبدا، وكأنّه يقف في هذا موقف المذكّر المحذّر، فلا غفلة ولا نوم عن هذه البليّة، بل عن أمّ القضايا والبلايا، فلفظ (العهد) إشارة إلى العهدة العمريّة نسبة إلى عمر بن الخطّاب، لأنّها فتحت في عهده، أمّا لفظ (العروج) فتضمين لحادثة الإسراء والمعراج، الّتي فيها أسري بالنّبيّ –صلّى اللّه عليه وسلّم– من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثمّ عرج به إلى السمّاء من المسجد الأقصى بفلسطين؛ ففلسطين إذا تحمل دلالات عدّة وذكريات في قلوب المسلمين، ومن الآيات الّتي تحمل هذه المعاني من "الإسراء 01": ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أمّا لفظ العروج، فقد ورد في "الحجر 14": ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ فكانت هذه الآية إلهاما لغزو الفضاء، والبحث عن أسرار الكون خارج الأرض، أمّا لفظ (البروج) فقد ورد في "البروج 01": ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾، والآية أيضا فيها الدّعوة إلى السّباحة في الفضاء الخارجي ومن ملك الفضاء ملك العالم، وانحنت له الرّقاب، فهذا من وعي الشّيخ بما يدور حوله.

فأنت تلاحظ في مقطع قصير يضمنه الإبراهيمي ملامح عديدة لمن بالإشارة يفهم فكأنّه يقول لا سبيل لكم أيّها المسلمون إلى الغلبة والدّفاع عن بيضة الإسلام والمسلمين وأراضيهم ومقدّساتهم، إلاّ بالأخذ بأسباب العلم، وأنّهم – أي اليهود وأشياعهم من

الاستكبار العالمي– ما تغلّبوا علينا وأخذوا فلسطين إلاّ عندما تفوّقوا علينا بالعلم وأسبابه فتقدّموا وتأخرنا، وديننا في كثير من آياته يدعو إلى العلم، وأنّه مناط التّفرقة بين الأفراد والأمم، قال تعالى:﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[الزمر09]. لقد سخّر البشير متانة أسلوبه، وقوّة بيانه، وفصاحة لغته، ليعالج قضايا متعدّدة في آن واحد، قضايا الحاضر والماضي والمستقبل، قضايا مقدّسات الأمّة، المسجد الأقصى وفلسطين.

ومثلما تحدّث البشير عن اليمن وعن الجزائر وعن فلسطين تحدّث عن **مصر**، وما كابدته وتكابده، يقول في مقال "يا مصر": "وما زلتِ منذ كنت مهوى أفئدة العظماء الفاتحين فأخذوك اقتسارا وصلحا، وحازوك طوعا وكرها، وما منهم إلاّ مَنْ مَهَرَكِ المهر الغالي.."[28]، لقد تجلّى البيان القرآني في عبارات الإبراهيمي في قوله: (كنت مهوى أفئدة العظماء)، وهذا التّعبير تضمين لقوله تعالى (إبراهيم 37): ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمْ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾، فقد أسقط الشّيخ لفظ الآية ومعناه الخاصّ بإبراهيم وابنه إسماعيل وزوجه هاجر والبلد مكّة على مصر وأهلها، وإن كان بين المكانين مناسبة وروابط، فهاجر من مصر، ومصر موطن أحفاد إبراهيم من إسحاق ويعقوب.

ويقول في موضع آخر:"فما زلت منذ تفيّأت ظلّ الإسلام الظّليل تجدين منه في كلّ داجيّة نجما، ووراء كلّ داجيّة فجرا، ومازلت كلّما شكوت ضرّا في دينك يخفّ إليك من يكشفه، وكلّما شكوت ضرّا في دنياك يخفّ إليك من يدفعه"[29]، في هذا المقطع مقابلة جميلة سيقت دون تكلّف فتركت أثرها الطيّب على التعبير، لأنّ فيها تصويرا لحال مصر بين المدّ والجزر، بين العدوان والنّصرة، بين الغزاة والحماة؛ هذه المقابلة تتمثّل في قوله: (ومازلت كلّما شكوت ضرّا في دينك يخفّ إليك من يكشفه/وكلّما شكوت شرّا في دنياك يخفّ إليك من يدفعه)، ففي هذا القول تضمين من "النّمل 62": ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾، أمّا قوله: (وما زلت منذ تفيّأت ظلّ الإسلام الظّليل) فهذا تضمين من قوله تعالى "النّحل 48": ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

لم يكن البشير ليدع فرصة إلاّ واقتنصها، من ذلك أنّه وجّه كلمة في جريدة البصائر **للأئمّة** تحت عنوان "كلمتنا عن الأئمّة" يقول: "وانتهى إلينا من تسقّط الأخبار، وقصّ الآثار، أنّ الأمّة كانت بعد تلك الكلمات أزواجا ثلاثة: فأمّا الّذين استنارت بصائرهم وآمنوا بأنّ الدّين للّه، وأنّ بيوته لا يعمرها إلاّ من خشي اللّه، وأنّ تراث الإسلام لا يرثه إلاّ المسلمون، فزادتهم تلك الكلمات إيمانا بذلك واستبصارا فيه وثباتا عليه، وأمّا العوام المغرورون بالمداورة والأتباع المجرورون بالمجاورة فقد نقلهم صدى تلك الكلمات من رتبة اليقين بصحّة الباطل إلى رتبة الشكّ فيه، فهم يتساءلون ثمّ تغلبهم العادة فيتساهلون. وأمّا الّذين في قلوبهم مرض من الأئمّة أتباعهم المتشوّفين إلى الوظائف من أشياعهم فزادتهم مرضا إلى مرضهم وأصبحوا يخطبون بسبّنا، والعاقل من يُعَرِّضُ بذلك ولا يصرّح"[30]، ولع الشيخ بأسلوب القرآن الكريم، يجعله، يساير طريقته في النّظم، ونهجه في بناء التّراكيب وهو ما لمسناه في هذا النّصّ القصير الموجّه إلى الأئمّة، فقد وظّف تركيب القرآن من "الواقعة 07": ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَجًا ثَلاَثَةً﴾، حين بيّن أنواعا للأئمّة فقال، أنّ الأمّة كانت بعد تلك الكلمات أزواجا ثلاثة، وحتّى في استعمال الأداة (**أمّا**) لبيان التّفصيل، بقوله: فأمّا الّذين استنارت بصائرهم .. ثمّ يضمّن قوله: فزادته إيمانا، من قوله تعالى في "التّوبة 124": ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، وهم من يعمر المساجد، ويصفهم بالخشية، بقوله: (وأنّ بيوته لا يعمرها إلاّ من خشي اللّه)، وهذا تضمين لقوله تعالى "التّوبة 18": ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ ثمّ يتحدّث عن صنف آخر، وهم المنافقون ويصفهم بمرض القلب وهو النّفاق مضمّنا ذلك قوله تعالى في سورة البقرة، الآية 10: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا﴾، فأنت تلاحظ أنّه في فقرة قصيرة، قد ضمّن كثيرا من التّعابير البيان القرآني، من سور شتّى، من التّوبة إلى البقرة إلى غيرها، فتدرك ولعه بهذا البيان، أو أثر هذا البيان في أسلوبه، نظرا لثقافته القرآنيّة والدّينيّة الواسعة، فهو يفسّر بهذه الطّريقة آيات الذّكر الحكيم، حتّى لمتوسّطي التّعليم أو ذوي الثّقافة المحدودة.

وفي كلمة عن **العيد**، في مقال بعنوان "من وحي العيد"، يصف حاله وحال البلد والنّاس بَعْدَ ضلالٍ وبُعْدٍ عن الدّين، وقد هلّ هلال العيد، يقول:" ولكنّنا نكبنا عن صراط الفطرة وهدي الدّين.."[31]، وهذا تضمّنه قوله تعالى في "الفاتحة 06": ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ

الْمُسْتَقِيمَ﴾، وفي نفس المقال يقول: "وما أذكر أنّي سلكت في استقباله هذا الفجّ الّذي يسلكه الكتّاب الخليّون في التّهنئة به وتصويره بغير صورته وتملّقه ليعود عليها بالمجد الّذي أضاعوه والتّمنّي عليه أن يجود عليهم بما لا يملك، ثمّ الاسترقاء له بالأدعيّة الّتي لا تفتّح لها أبواب السّماء، لأنّها إزجاء للرّكائب بلا حاد"[32]،قوله: "لا تفتح لها أبواب السماء" مقتبس من "الأعراف40": ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾.

هذه الرّوعة من الإبراهيمي في صياغة العبارات ترجع إلى مقدرته العجيبة في المزج بين الفن والأدب، وإلى ثقافته الموسوعيّة، فأنت ترى لغته سهلة بسيطة قريبة من المجتمع، في إيجاز غير مخلّ، أو إطناب غير ممّلّ. يصف الدّكتور إبراهيم السّامرّائي هذه المقدرة المتجلّاة في مقالاته في عيون البصائر، فيقول: "وكذلك الإيجاز فإنّه يرافقه بعض التّفصيل فإذا نحن أمام جزئيّات خفيفة رشيقة وكأنّها ترقّيش على ثوب أو تزيين لوحة وكأنّها استرواح من شدّة وتنفّس من ضيق"[33].

وقد تجد الإبراهيميّ يضمّن مقتطفا ما، عددا من المواضيع القرآنيّة، كالشّخصيات والأحداث التّاريخيّة، مثال ذلك، ما ننقله عن عيون البصائر، لمقال بعنوان: خصمان ... فمن الحكم؟ يقول: "أمّا نحن فو اللّه ما زلّت لنا قدم، ولا زاغ لنا بصر ولا ضعفت لنا عقيدة، ولا غامت لنا بصيرة، وإنّنا نأتي ما نأتي وعقولنا في مستقرّها"[34]، فعبارة: (ما زاغ لنا بصر)، مضمّن قوله تعالى في "الأحزاب 10": ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾، فزيغ البصر معناه شدّة الاضطراب والخوف ممّا حلّ بالمسلمين يوم الأحزاب، لهول ما عانوه، خاصّة المنافقين، الّذين لا يثقون في وعد اللّه ولا في وعد رسوله صلّى اللّه عليه وسلّم، من هذه الحادثة **استعار** الإبراهيمي زيغ البصر، كعلامة على الاضطراب والوجل، وهو ورجال الجمعيّة في مطالبتهم ومغالبتهم للعدوّ ثابتون رابطوا الجأش بصحّة العقيدة وثبات القدم ونور البصيرة، ليس من شأنهم النّفاق ولا سوء الأخلاق، ولا زيغ البصر.

ويقول في موضع آخر: "زيّن للاستعمار سوء عمله فطغى وبغى، وكفر وعتا وأتى من الشرّ ما أتى، فلو تصوّر إنسانا لأربى على فرعون الّذي نازع اللّه في ربوبيته، وحدّثته نفسه

أن يطّلع على إله موسى، وعلى عاقر النّاقة الّذي جرّ العذاب على قومه، ولو تصوّر حيوانا لكان وحشا، ولو تصوّر ماء لكان ملحا زعافا، وحميما وغساقا، أو ريحا لكان إعصارا يدمّر كلّ شيء بإذن الشّيطان"[35]، في هذا المقطع نجد الشّيخ قد ضمّنه عددا من النّصوص والأحداث، من ذلك مثلا: قوله: (زيّن له سوء عمله) من قوله تعالى في "فاطر 08": ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّه يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾، وقوله تعالى في "غافر 37": ﴿وكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ فتزيين سوء العمل، هو من يعمل سوءا ويحسب أنّه يحسن صنعا. وقوله: (نازع اللّه في ربوبيته)، فهذا تضمين لقوله تعالى على لسان فرعون في "النّازعات 24": ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، فمقصود الشّيخ، أنّ العتاة المتجبّرين، يدفعهم الكبر إلى الغرور وأن يدّعوا الألوهيّة، فأعمالهم تشير إلى ذلك، وما أكثر من تشبّه بهم. وقوله: (حدّثته نفسه أن يطّلع على إله موسى)، هذا تضمين لقوله تعالى في غافر 37/36: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، فهذا النّص القرآني يصوّر وقاحة فرعون في ادّعاء الألوهيّة من جهة، وفي تحدّ آخر وهو استغباء لرعيّته في تصوير لقوّته وهو الاطّلاع على إله موسى وقتله. وقوله: (وعلى عاقر النّاقة الّذي جرّ العذاب على قومه)، فهذا تضمين لقوله تعالى في الأعراف 78/77: ﴿فَعَقَرُوا النَاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، هذا النّص تصوير لعاقبة الكفر والعناد والطّغيان، فالشّيخ يضمن تعابيره وأفكاره ما جرى للأوّلين وكأنّه يحذّر عاقبة هذا الطّغيان والكفر والعناد للآخرين. وقوله: (لكان ملحا زعافا وحميما وغساقا) وهذا تضمين لقوله تعالى في النّبأ 25: ﴿إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾، أي هذا الشّخص المعاند لو صوّر –قال– ماء لكان طعمه مرّا علقما أو سمّا زعافا، أو مغليّا كالحميم، أو غسّاقا أي عصارة أهل النّار من الصّديد والقيح. وقوله: (أو ريحا لكان إعصارا يدمّر كلّ شيء بإذن الشّيطان)، مضمّن قوله تعالى في الأحقاف 25/24: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ فالشّيخ يصوّر فعل هؤلاء المغرورين، وما تمثّله أمنياتهم من إهلاك للحرث والنّسل، وهذا ما تسوّله لهم أنفسهم وشياطينهم.

فقد برع الشّيخ –رحمه اللّه– في تصوير حال هؤلاء العتاة السّفلة، بسوق هذه النّصوص القرآنيّة في قوالب تعبيريّة جميلة ثريّة ورائعة، تنبئ عن مقدرته اللّغويّة، وكذا عن سعة ثقافته المتنوّعة.

- **اللّغة العربيّة في الجزائر (عقيلة حرّة ليس لها ضرّة):**

هذا مقال كتبه الإبراهيمي ردّا على محاولات الاستعمار في ضرب استقرار ووحدة الجزائريين، حينما رأى جدّهم في المطالبة بالاستقلال، بأن سلك سبيل فرّق تسد، فمنح للأمازيغ بعض المنابر للحديث بالبربريّة، بالإذاعة الفرنسيّة في وقت لم يكن جلّ الجزائريين يملك مذياعا، فتصدّى الإبراهيميّ مبيّنا أنّه لم يكن بين العرب والأمازيغ يوما تنافر أو تناحر، ولا حتّى بين اللّغات الّتي يتحدّثونها، يقول: "إذا رضي البربريّ لنفسه الإسلام طوعا بلا إكراه، ورضي للسانه العربيّة عفوا بلا استكراه، فأضيع شيء ما تقول العواذل، واللّغة البربريّة إذا تنازلت عن موضعها من ألسنة ذويها للعربيّة، لأنّها لسان العلم وآلة المصلحة فإنّ كلّ ما يزعمه المبطلون بعد ذلك فضول"[36]، ما نجده في هذا المقطع القصير، هو الألفاظ والتّراكيب القرآنيّة الّتي وظّفها الإبراهيميّ، من ذلك: لفظة **(رضي)** المستوحاة من قوله تعالى في "الفتح 18": ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾، أو مستوحاة من دعاء النّبي (رضيت باللّه ربّا وبالإسلام دينا وبمحمّد–صلّى اللّه عليه وسلّم– نبيّا ورسولا، فاللّفظة لا تخرج عن الوحيين، ومنه أيضا لفظتا **(الطّوع والكره)**، فقد وظّفهما على شكل محسنّ بديعي أي طباق، ليظهر أثرهما على المعنى المقصود في التركيب الّذي ساقه، وهاتان اللّفظتان متضمّنتان لقوله تعالى في "آل عمران 83": ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ وفي "الرّعد 15": ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، كما استعمل لفظة **(المبطلون)** الواردة في عدد من الآيات، منها: من "العنكبوت 48": ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾، ومن "الجاثيّة 27": ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ﴾، ومن "غافر 78": ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ والمبطلون هم الكافرون الجاحدون، وهذا وصف يليق بالاستعمار وبأذنابه.

ويقول في خطاب له محذّرا بما حلّ من ويلات في العالم الإسلاميّ، من تخطيط من الاستعمار، لتفرقة المسلمين واستغلال لخيراتهم، بوسائل شتّى، من ذلك تسخيره للعلماء والشّباب: "ثمّ عمدوا إلى الكبراء فأغووهم بالأموال والألقاب والرّتب، وأغروا بينهم العداوة والبغضاء، وشغلوهم بالتّوافه عن العظائم.."[37]، فالملاحظ من هذا القول تضمين الشّيخ في قوله: (أغروا بينهم العداوة والبغضاء) قوله تعالى في "المائدة 91": ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، فلعلّه في تضمينه لهذه الآية قد عمد إلى نوع من الاستعارة مشبّها لفعل الاستعمار بالمسلمين فعل الخمر بأهلها، من الإسكار وذهاب العقل، ثمّ ما يلي ذلك من اشتداد العداوة والبغضاء؛ وقوله: (شغلوهم) تضمين لقوله تعالى في "الفتح 11": ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، واختياره للفظ (شغلوهم) كناية عن المنافقين الذين اعتذروا للنّبي عليه الصّلاة والسّلام، في اللّحاق بركب المجاهدين يوم تبوك.

وفي هذا القدر كفاية، لأنّ الأمثلة كثيرة، فقط أردنا بيان قدرة الشّيخ الإبراهيمي في الوصول بالعربيّة إلى قمّة البيان، وإلى أسر السّامعين بتنويع الأساليب في مختلف المقامات دعوة لهم للاعتزاز بتراثهم، وفي قمّة هذا التّراث: العربيّة والقرآن الكريم.

خاتمة:

في ختام هذا البحث نورد جملة من النتّائج نراها مناسبة له، وذلك لأهمّيّة الموضوع.

1- وجدنا الإبراهيمي يفسّر ألفاظ القرآن وأحداثه، لا على طريقة المفسّرين كابن كثير والزّمخشري، بل على طريقته من خلال توظيف ألفاظ القرآن ومعانيه، تضمينا واقتباسا وإسقاطا واستعارة وتشبيها وفي ذلك أمثلة كثيرة.

2- زخم ألفاظ القرآن ومعانيه في أسلوب الإبراهيمي، دلالة على ثقافته التّراثيّة الموسوعيّة المتنوّعة، من أدبيّة وتاريخيّة ودينيّة وعلميّة ولغويّة.

3- لمسنا غيرة الإبراهيمي على الأمّة الإسلاميّة جمعاء، فيتأثّر بكلّ ما يصيب المسلمين في أنفسهم وفي بلدانهم بل ويعدّ نفسه واحدا منهم، فقد تناول بالحديث مدنا تاريخيّة ذكرها القرآن، فهو يعنيها اليوم، بتشخيصه لأحوالها، وما يراد لها من كيد وفتن كـ: مصر واليمن وفلسطين.

4- أسلوبه القرآني يتنوّع بين المجاز والحقيقة، بل في المجاز نفسه بين التّشبيه والاستعارة والكناية، حتّى أنّه كان بين الفينة والأخرى، يسير على هدى الأوّلين من الزّخرفة الكلاميّة كالسّجع والجناس، هكذا عفو الخاطر دون تكلّف، إلاّ على سبيل السّخريّة مثلما رأيناه في سجع الكهّان.

5- قد شهد لأسلوبه القريب والبعيد، من المقدرة والتمكّن وكأنّه قادم من بعيد أي من زمن ابن المقفّع وعبدالحميد الكاتب، والجاحظ والحجّاج، وغيرهم ممّن ترك بصمات واضحة.

6- معاني القرآن وأحداثه وألفاظه في أسلوبه، دعوة غير مباشرة منه إلى تلاوة القرآن وتدارسه، والاحتكام إليه بل والفخر به وتبليغه لمن لم يصل إليه، كما نلمس صراحة في دعوته إلى الاعتزاز بالعربيّة للعودة بها إلى مكانتها المعهودة ولا يكون هذا إلاّ بإعادة تفعيلها في الكتابة بها نثرا وشعرا.

نقول أنّ هذا الموضوع بحاجة ماسّة وكبيرة إلى مزيد من الدراسة من أجل التّعريف بهذا الفذّ – الإبراهيمي– للناشئة والطلاّب على مختلف مستوياتهم، والوقوف على بيانه ومقدرته في الكتابة، ومن ثمّ أثر القرآن فيه وفي أسلوبه، كما يجب التّدقيق في آثاره الّتي بين أيدينا والبحث الدّؤوب للوصول إلى الآثار المفقودة لعلّها تحمل جديدا غائبا عنّا، فتزدان به مكتباتنا، ويتنوّر به باحثونا.

كما يجب تقديم نصوص متنوّعة لطلاّبنا في مختلف مراحل التّعليم، تعريفا بها وبصاحبها ثم كنصوص تدريبيّة على الكتابة وفن الترسّل فتصقل مواهبهم بها، فلا تبقى حبيسة هذه الآثار فتنمو بذلك ملكاتهم عوض تقديم نصوص غثّة لا تسمن ولا تغني من جوع.

الهوامش والإحالات

(1)– جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها في اللّغة والأدب (مخطوط)، للطالب: صالح الجعلود إشراف الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، جامعة الأزهر، كلّيّة اللّغة العربيّة، مصر، ص44.

(2)– المرجع نفسه، ص44.

(3)– المرجع نفسه، ص45.

(4)– مجلّة العربي، العدد 120، شعبان 1388هـ/1968م، ص125، وينظر: جمعيّة العلماء، ص44.

(5)– مجمع اللّغة العربيّة في ثلاثين عاما، محمد مهدي علاّم، مطابع الأميريّة، 1386هـ/1966م ص156–157، وينظر: مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، ج21، 1977م، ص141.نقلا عن الخصائص النّثريّة الإصلاحيّة للشّيخ البشير الإبراهيمي، ص08.

(6)– مجلّة الثّقافة الجزائريّة، جميل صليبا، عدد/87، ماي 1985، ص44.

(7)– آثار الإبراهيمي، ج581/580/3.نقلا عن المعجم اللّغوي لمقامات محمد البشير الإبراهيمي مخطوط ماجستير، ص38.

(8)– فنون النّثر الأدبي المعاصر في الجزائر(1945/1925)، عبد المالك مرتاض، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ص3.

(9)– الصّورة الفنّيّة في في التّراث النّقدي البلاغي، جابر عصفور، دار الثّقافة، 1984، القاهرة، ص380.

(10)– البشير الإبراهيمي أديبا، محمد عبّاس، الدّيوان الوطني للمطبوعات الجامعيّة، ص332.

(11)– مجلّة الثّقافة الجزائر، العدد 1985/87، ص198.

(12)– المجاهد الأسبوعيّ، 26–05–1968م، مقال بعنوان: الوظيفة الاجتماعيّة لأسلوب الشّيخ الإبراهيمي، نقلا عن مجلّة اللّغة العربيّة، العدد/10، مقال بعنوان: ملامح من إسهامات الصّحافة الوطنيّة بالجزائر، في النّهوض باللّغة العربيّة، د: محمد بن سمينة، جامعة الجزائر.

(13)– الصّديق، ع/7، بتاريخ:12–10–1920، نقلا، عن د: محمد ناصر: المقالة الصّحفيّة الجزائريّة عدد/45.

(14)– جريدة البصائر، عدد:71، بتاريخ، 22–06–1939م.

(15)– لسان العرب، مادّة (ضمن)، مج/3، ج2610/28، لابن منظور، تح: عبد اللّه علي الكبير ومحمد أحمد حسب اللّه، وهاشم محمد الشّاذلي، دار المعارف، مصر.

(16)– معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، أحمد مطلوب، مكتبة لبنان ناشرون، ط2، لبنان، 2007م ص373.

(17)– الاقتباس عن القرآن في الشّعر العربي، عبد الهادي الفكيكي، دار معد، ودار النّمير، دمشق سوريا، ط1996/1م، ص11.

(18)– الاقتباس عن القرآن الكريم، ص12. وينظر: المعجم المفصّل في علوم البلاغة (البديع، البيان والمعاني)، إنعام فوّال عكّاري، دار الكتب العلميّة، بيروت،ط1417/2هـ/1996م، ص194.

(19)– المعجم المفصّل في علوم البلاغة، ص194.

(20)– نثر محمد البشير الإبراهيمي، محمد العيد تاورتة، مخطوط، ماجستير، 1980م، الجزائر، ص620.

(21)– صحيح الجامع، محمد ناصر الألباني.

(22)– آثار الإبراهيمي، ج2، ص105.

(23)– مجلّة اللّغة العربيّة، ع/10، ص18.(م س)

(24)– عيون البصائر، ص589–591.

(25)– آثار الإبراهيمي، ج531/3.

(26)– آثار الإبراهيمي، ج88/3، وينظر: فلسطين في أدب الإبراهيمي، ص285.

(27)– المصدر نفسه، ج513/2، جريدة البصائر، ع/25، لسنة 1948م.

(28)– المصدر نفسه، ج561/2.

(29)– المصدر نفسه،ج561/2. (مقال بعنوان: يا مصرُ).

(30)– جمعيّة العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها في الأدب، ص50، وينظر: عيون البصائر، محمّد الشير الإبراهيمي، الشركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ج201/2–202.

(31)– عيون البصائر، عدد: 1951/163، ج2/ ص545.

(32)– المصدر نفسه، (ن ص).

(33)– أصالة العربيّة في عيون البصائر، مقال للدكتور إبراهيم السّامرّائي، كلّية بغداد، من كتاب: مواقف الإمام الإبراهيمي في عيون المعاصرين، الجزائر، ط7، ص205.

(34)– عيون البصائر، ج180/2.

(35)– المصدر نفسه، ج181/2.

(36)– المصدر نفسه، ج222/2، ع/41، لسنة: 1948م

(37)– المصدر نفسه، ج220/3.